

أبو الحسن الشاذلي والقطبانية

ذ. البشير الريسوني

كلية أصول الدين — تطوان

أن ما يحز في النفس ويبعث على الاستغراب ويثير الانتباه هو أنه في الوقت الذي أصبحنا فيه نعلم كل شيء تقريبا عن التصوف الإسلامي في المشرق فإننا في الوقت نفسه نكاد نجهل كل شيء عن التصوف الإسلامي في المغرب، مع العلم أن المغرب من أعرق البلاد الإسلامية في ميدان التصوف فكرا وممارسة، وأن التصوف فيه ظاهرة تاريخية مستمرة تندرج ضمن الظواهر الفاعلة التي كانت تكون بنية المجتمع المغربي منذ الفتح الإسلامي الأول.

ولا نعدوا الحقيقة إذا قلنا بأن لذة التصوف ومتعة الفناء في حب الله ليست مقصورة على بعض المشاركة دون غيرهم من مسلمي متصوفة المغرب، بل قد ترامت آثار المد الصوفي المغربي إلى المشرق منذ العهود الأولى للإسلام، وذلك عن طريق كوكبة من العباد والزهاد والنسك..

ولعل فيما ورد في كتاب "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية

وزهادهم وعبادهم ونساکهم" — لأبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي — ما يؤكد
صدق ما نقول.

فقد جاء في هذا الكتاب عدة حكايات طريفة في هذا الشأن، منها أن "ذا النون المصري" الزاهد المعروف شد الرحيل إلى المغرب من أجل الاستفادة من موعظة الزاهد

المغربي "أبي علي شقران بن علي الفرضي"، الذي كان وتدا من أوتاد الدين والأخلاق في المجتمع المغربي.

وعندما وصل ذو النون إلى المغرب وجد الرجل دخل معتزله في ساعته فلانتظر "ذو النون" أربعين يوما، فلما تمت خرج فلما رأى "ذا النون" قال له:
من المشرق أنت ؟

قال: نعم،

قال: ما الذي أقدمك بلادنا ؟

قال: بلغني خبرك فأتيت إليك لتعظني لعل الله أن ينفعني بكلامك.

فقال له: يا فتى سح في الأرض، واستعن بأكل العشب على أداء الفرض، ولا تقبل من أحد صلة ولا قرضا فإذا خشيت أن تقترض فاستعن بالذي عليه تعرض. ثم دخل وأقام ذو النون على بابه أربعين يوما أخرى فلما خرج بعد انقضائها.
قال له: ما انتفعت من الموعظة بشيء !.

قال: أردت الزيادة.

قال: أردت الزيادة وسأنقصك! يا فتى كل من كد يمينك مما عرق فيه جبينك، ولا تأكل بدينك فإن خفت أن يضعف يقينك فاستعن بالله يعينك .. اعلم أن لي ولك غدا موقفا بين يدي الله عز وجل، فاتق الله ولا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك. ثم دخل فأقام على بابه أربعين يوما، فلما خرج قال:

ما انتفعت بالموعظة ؟

قال: أردت الزيادة.

قال: لست من أهلها وسأنقصك! يا فتى ارض بما قسم الله لك تكن من أزهد الناس، وانه عما هناك الله عز وجل عنه تكن من أروع الناس، ثم هم بالدخول فجذبته ذونون من ثوبه وقال: زودني منك زادا ينفعني الله تعالى به.

قال: قدس في يدي شيئا كههيئة الدينار أو كههيئة الدرهم، فنظرت فإذا هو اسم من أسماء الله تعالى

قال: فما سألت الله عز وجل به شيئا إلا أعطاني إياه¹.

وانطلاقا من هذا النص الثري والعميق الذي يرمز إلى الإيمان السليم والخلق القويم والاعتماد على الله في كل شيء، فإنه يمكن لنا أن نقول بكل فخر واعتزاز أن الفكر الصوفي المغربي سائر نظيره في المشرق منذ الفتح الإسلامي، ولئن أغفل كثير من الإخوة البلحثين في المشرق تسجيل هذه الحقيقة فإنهم لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عما قام به أفراد عديدون من المغرب من أدوار بارزة في إثراء وتحديد الفكر الصوفي بالشرق كأبي الحسن الشاذلي الذي عمت شهرته الآفاق، وانتشرت طريقته في جميع الأمصار الإسلامية، بحيث نجد أهم الطرق الصوفية السنية بالشرق بعد عصر "الشاذلي" ترجع بأصولها إلى صوفية المغرب بطريقة أو أخرى².

لقد قام أبو الحسن الشاذلي في حقل التصوف الإسلامي بأدوار لا تقل أهمية إن لم نقل تزيد عما قام به من قبل أبو حامد الغزالي، وأن تجديده في ميدان الفكر الصوفي جاء معبرا عن المغرب الموحد، بل ومعبرا عن العالم الإسلامي الذي وجد في التصوف الشاذلي خير مثال في ميدان الأخلاق والتصوف السني الصحيح.

¹ - انظر: هذه الحكاية في الجزء الأول من كتاب "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم" لأبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي.

² - التهامي الوزاني: الزاوية، ص: 144. التليدي: المطرب بذكر بعض مشاهير أولياء المغرب، ص: 130، مطابع الشمال طبعة: 1401هـ 1980م.

فقد ولد أبو الحسن الشاذلي عام 593هـ الموافق لعام 1196م بقبيلة الأخماس الغمارية بقرية بني زرويل بقرية "اشتوناغل"³.

ويذكر الأستاذ عبد الله التليدي في "المطرب" أن البيت الذي ولد فيه الشاذلي لا يزال محفوظا متبركا به إلى الآن⁴.

وتوفي — رحمه الله — في "حميثرا" على ساحل البحر الأحمر بين "قنا" و "القصر" عام ستة وخمسين وستمائة هجرية الموافق لثمانية وخمسين ومائتين وألف ميلادية⁵.

وخلال هذه السنوات: ثلاثة وستون عاما عاشها الشاذلي بين ولادته في المغرب وموته على ساحل البحر الأحمر، كتب التاريخ دقائق حياة هذا القطب الكبير فتتبع سيرته العطرة في غماره، وبغداد، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وشاذلة، وتونس، والإسكندرية، والقاهرة، وفي الصحاري، وداخل القرى والمدن، وفي بطون المغارات، وعلى سفوح الجبال وقممها وعلى شواطئ البحار .. وبين هذه وتلك تجمع سفر ضخم يضم صولات الرجل وجولاته .. حين عقدت له الولاية والقطبانية.

وأبو الحسن الشاذلي اسمه علي ولقبه تقي الدين وكنيته أبو الحسن، وشهرته الشاذلي، والشاذلي معناه الحرفي: هو المفرد لخدمتي وصحبي⁶.

وهو من أسرة شريفة علوية، نسبها الأغلب إلى الحسن بن علي من جهة أبيه، كما نسبوه إلى الحسين بن علي من جهة أمه هاجرت أسرته مع من هاجروا من المشرق

³ التليدي: المطرب، ص: 126.

⁴ نفس المصدر ونفس الصفحة.

⁵ ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، ص: 56، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت.

عبد الرحمن بن محمد الفاسي: حزب البر، ص: 33، 1389 هـ 1969م مكتبة الكليات الأزهرية.

⁶ نظر: عبد الرحمن بن محمد الفاسي: شرح حزب البر، ص: 31.

ابن الصباغ: درة الأسرار، ص: 36. الناشر دار الرقاعي

⁷ شرح حزب البر، ص: 31.

إلى المغرب بعد مأساة كربلاء التي استشهد فيها سبط رسول الله ﷺ الإمام الحسين بن علي في عام 61 هـ . وهذا يتضح من شجرة نسبه التي أوردها — بعد تحقيقها — ابن عطاء الله السكندري (ت 709 هـ) في كتابه "لطائف المنن"⁸.

هو أبو الحسن الشاذلي الحسني "علي بن عبد الله ابن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف ابن يوشع بن ورد بن بطل بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسين بن علي أبي طالب".

ويعلق "ابن عباد"⁹، صاحب "المفاخر العلية" على هذا النسب فيقول: « وهذا هو النسب الصحيح "لسيدي أبي الحسن الشاذلي" — رضي الله عنه — صاحب الطريق، ومظهر لواء التحقيق ».

ولقد كان الجانب العلمي من العناصر الأولى التي حددت شخصيته.

فقد بدأ الدراسة والتحصيل في بلدته فحفظ القرآن الكريم على الطريق العادي للمغاربة، ثم درس العلوم الدينية وتدرج فيها سلماً وراء آخر ورحل إلى فاس فقرأ على أكبر علمائها، ثم رحل إلى تونس وتلقى على علمائها علوم الفقه المالكي والنحو، والصرف، والأدب، والتفسير، والحديث والتوحيد، وعلم الكلام، وفتح الله عليه فبرع في هذه العلوم براعة كبيرة أهله أن يناظر أكبر علماء عصره وينتصر عليهم¹⁰.

وبعد أن أتقن علوم الظاهر وأثبت تفوقه فيها أدرك أن هذه العلوم مهما بلغت من الدقة والعمق فإنها تبقى ناقصة لا تفضي بالنفوس إلى التطلع إلى عالم الغيب واستشراف آلائه وأنواره.

⁸ لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه الشاذلي أبي الحسن، ص: 51. دار الكتب العلمية، بيروت.

⁹ المفاخر العلية، ص: 10.

¹⁰ انظر: عبد الرحمن بن محمد الفاسي: حزب البر، ص: 131. المطرب، ص: 126. 127.

لطائف المنن، ص: 51.

لقد شعر "أبو الحسن الشاذلي" بالرغبة الملحة في أن يستضيء قلبه بأنوار المعرفة غير الموجودة في علوم الظاهر. وتساءل في نفسه عن الوسيلة التي توصله هذه الغاية فاهتدى أنه لابد أن يبدأ طريقه من خلال خبير في هذا العلم الرباني، فأخذ في البداية طريق القوم على وجه التبرك بفاس على الشيخ سيدي محمد بن حراز¹¹، إلا أن نفسه الطموحة تآقت إلى الترقى أكثر من ذلك فجعل يطلب القطبانية¹²، وهنا أخذ يفكر بالأمر وانتهى به تفكيره بالسفر إلى بغداد محط آمال وأنظار طلاب العلم والمعرفة في وقته؛ لأنها كانت تضم أكبر تجمع للفقهاء والمحدثين والقمم العالية من رجالات التصوف.

وفي بغداد التقى بمجموعة من العلماء والصلحاء والأولياء، وعلى رأسهم الإمام "أبو الفتح الواسطي" عام 618 إمام زمانه وعالم وقته، والذي شهد له أبو الحسن الشاذلي بتبحره في العلم حين قال: «لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فما رأيت بالعراق مثله»¹³.

لقد أخذ أبو الحسن يتردد على أبي الفتح الواسطي وغيره من علماء بغداد في مدارسهم ومنازلهم، وصوامعهم وهو يبحث ويبحث ويفتح أذنيه وينصت لكل كلمة تقال. وقد شاهد كثيرا من الأنوار على وجوه علماء بغداد إلا أنه لم يكن مرتاح البال، بل كان دائم القلق والتوتر، والسبب — كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه الجامع "أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله" — أنه لم يجد مطلبه الذي جاء من أجله إليه.. لم يجد القطب الذي يمكن أن ينير له الطريق يأخذ بيده إليه.

¹¹ انظر: شرح حزب البر، ص: 31. المطرب، ص: 127.

¹² سئل أبو الحسن الشاذلي عن القطب فقال: الأقطاب كثيرة، فإن كل مقدم قوم هو قطبهم، وأما قطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد. وانظر: المفاخر العلية، ص: 17.

¹³ انظر المفاخر العلية، ص: 12. شرح حزب البر، ص: 32. المطرب، ص: 127.

وقد لاحظ أبو الفتح الواسطي ما كان يضمّره الشاذلي في نفسه من قلق وتوتر من عدم تحقيق ما أتى من أجله، ولهذا كما يقول ابن الصباغ في كتابه "درة الأسرار" قال له هذا العالم ذات مرة: «يبدو أنك تبحث عن القطب بالعراق، مع أن القطب ببلاذك .. ارجع إلى بلاذك تجده»¹⁴ !!.

وهنا تنفرج أسارير الشاذلي ويزول عنه التوتر الذي كان يلزمه فيعود على الفور إلى المغرب فيجد القطب، والقطب هو الشيخ "عبد السلام بن مشيش" الذي يسكن مغارة في أعلى رأس جبل العلم.

يصف أبو الحسن الشاذلي اللقاء بينه وبين ابن مشيش فيقول: «اغتسلت بأسفل الجبل، وخرجت من علمي وعملي وطلعت إليه فقيرا، وإذا به هابط علي، وعليه مرقعة وعلى رأسه قلنسوة من خوص، فقال لي: مرحبا بعلي ابن عبد الجبار، وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ ثم قال: يا علي .. طلعت إلينا فقيرا من علمك ومن عملك فأخذت منا غنى الدنيا والآخرة .. فأخذني منه الدهش، فأقمت عنده أياما، إلى أن فتح الله علي بصيرتي»¹⁵

كانت هذه البداية الإطفائية كما عند الصوفية لأبي الحسن الشاذلي، أي التقاء الوارث مع الموروث، أو المريد مع شيخه.

لقد رسم ابن مشيش لأبي الحسن الشاذلي الطريق، فيما يستقبله من أيام، وزوده بما ينبغي تزويده به من فيض العلم والمعرفة. وبعد أن اغترف ما استطاع أن يغترفه من أستاذه قال له الأستاذ: «يا علي، ارتحل إلى إفريقية واسكن بها بلدا تسمى "شاذلة" فإن الله عز

¹⁴ درة الأسرار ونخفة الأبرار، ص: 28، الناشر دار آل الرفاعي.

¹⁵ انظر: المفاخر العلية، ص: 12، 13. حزب البر، ص: 32. درة الأسرار، ص: 28، 29.

وجل يسميك "الشاذلي". وبعد ذلك تنقل في مدينة تونس ويوتى عليك بها من قبل السلطة، وبعدها تنتقل إلى أرض المشرق وبها ترث القطبانية»¹⁶

وقد كانت آخر وصايا ابن مشيش لأبي الحسن لما حان موعد الفراق هي: «يا علي .. الله الله .. والناس الناس، نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التمايل من قلبهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عندك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك»¹⁷.

وهنا يفترق أبو الحسن عن أستاذه ويسير في الطريق الذي تم رسمه له. ويذكر مؤرخوه، أن كل ما قاله ابن مشيش، أو توقعه لأبي الحسن قد وقع تحقيقه. لقد نفذ أبو الحسن تعليمات أستاذه فحث الخطأ نحو شاذلة وصعد هناك إلى غار في جبل "زغوان" المطل على شاذلة واتخذ رباطا له للإقامة والتعبد¹⁸. ويفسر الدكتور عبد الحليم محمود، هذه الرحلة إلى الجبل فيلخصها في فائدتين بالنسبة لأبي الحسن الشاذلي:

الفائدة الأولى: هي إتاحة الفرصة لتفرغه للعبادة لاستكمال النقص، أو للبعد عن الفتنة أو للتغلب عن آثار هوى. ولا بد من هذا التفرغ استجماما روحيا وعلاجيا نفسيا، وبعثا لكوامن الفضائل، ولا بد للتفرغ ليرقى مدارج السالكين.

الفائدة الثانية: فهي تقطع الطريق عن اللاهين المتطفلين من الجلوس على مائدة الشيخ الروحية، ذلك أنه سوف لا يذهب إلى جبل "زغوان" لرؤيته إلا محب للمعرفة جاد في طلبها¹⁹.

¹⁶ انظر: درة الأسرار، ص: 29. المفاخر العلية، ص: 13. شرح حزب البر، ص: 32.

¹⁷ درة الأسرار، ص: 29. المفاخر العلية، ص: 13.

¹⁸ شرح حزب البر، ص: 32.

¹⁹ أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله، للدكتور عبد الحليم محمود.

وبقي أبو الحسن يتعبد بالجليل فترة طويلة، وكان الشخص الوحيد معه في هذه الفترة هو الشيخ الصالح "أبو محمد الحببي"²⁰ من شاذلة. وأخذ الناس يقصدونه من كل الأماكن والبلدان المجاورة فأصبح يعرف "بالشاذلي"²¹.

وتنتهي فترة العزلة، فترة التدريب والصقل الروحي فيترل الشاذلي من جبل زغوان إلى تونس فيقيم بإحدى الدور يدرس ويعظ وينشر دعوته وطريقته بين تلامذته ومحبيه ومريديه.

ومن الحقائق التاريخية، أنه بمجرد أن دخل تونس التف حول زمرة من الفضلاء، منهم الشيخ أبو الحسن علي بن مخلوف الصقلي، وأبو عبد الله الصابوني، وأبو محمد عبد العزيز الزيتوني، وأبو عبد الله البجائي الخياط، وأبو عبد الله الجارحي، والشيخ ماضي أبو العزائم تلميذ الشيخ وخادمه²². وقد وصفهم ابن الصباغ بأنهم أصحاب كرامات ومكاشفات²³.

ويوما بعد يوم يزداد عدد المريدين والمحبين حتى اجتمع على أبي الحسن خلق كثير، الشيء الذي ضاق منه العلماء والفقهاء، وفي مقدمتهم قاضي الجماعة أبو القاسم ابن البراء، الذي أوغر صدر سلطان تونس عليه، فقال له: «إن ههنا رجلا من أهل شاذلة سواق الحمير يدعي الشرف، وقد اجتمع عليه خلق كثير، ويدعي أنه الفاطمي ويشوش عليك في بلدك.. وإن ملكك في خطر منه²⁴». إلا أن الشاذلي خرج من هذه المؤامرة منتصرا مهيب

²⁰ ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن

²¹ المفاخر العلية، ص: 24. شرح حزب البر، ص: 31.

²² المفاخر العلية، ص: 24.

²³ درة الأسرار، ص: 35.

²⁴ تنظر المفاخر العلية، ص: 24. 25. و درة الأسرار، ص: 35. 36. و شرح حزب البر، ص: 32. 33.

الجانب فقال السلطان لابن البراء بعد التحري والبحث: « هذا رجل من أكابر الأولياء، ومالك به طاقة »²⁵.

وعندما عزم أبو الحسن على أداء فريضة الحج أمر أصحابه بالتنقل إلى المشرق قبل موعد الحج بزمان طويل لتتاح له فرصة الإقامة بمصر فترة قبل الذهاب إلى الديار المقدسة²⁶.

وبمجرد ما علم السلطان أبو زكرياء بعزم أبي الحسن على الرحيل لأداء فريضة الحج ذهب يريجوه بالعودة إلى تونس فوعده خيرا²⁷.

هذا، وما كاد أن يدخل ركب أبي الحسن الاسكندرية حتى سبقه عقد من ابن البراء موقع من شهود إلى سلطان مصر يقول له فيه: « إن القادم إليكم شوش علينا بلادنا، وكذلك يفعل في بلادكم »²⁸.

وباءت هذه المؤامرة أيضا بالفشل، وخرج منها أبو الحسن كالشعرة من العجين.

وواصل الشاذلي رحلته إلى الحج فأدى الفريضة، وقام بزيارة رسول الله ﷺ.

ويقول ابن الصباغ: « إن أبا الحسن حين قدم إلى مكة وقف على باب الحرم من أو النهار إلى نصفه عريان الرأس حافي القدمين يستأذن رسول الله ﷺ ، فسئل لماذا؟ فقال: حتى يؤذن لي، ثم سمع النداء فدخل، وقف خاشعا أمام الروضة الشريفة يصلي ويسلم على رسول الله ﷺ، كما يصلي ويسلم على أبي بكر وعمر ».

²⁵ درة الأسرار، ص: 36. و المفاخر العلية، ص: 25.

²⁶ المفاخر العلية، ص: 26.

²⁷ المفاخر العلية، ص: 27. و درة الأسرار، ص: 38.

²⁸ المفاخر العلية، ص: 27. 28 و درة الأسرار، ص: 38.

وبعد رحلة الحج يعود مرة أخرى إلى تونس، ويجد بأن ثورة ابن البراء عليه لم
تهدأ²⁹، بل إنها — كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود، في كتابه "أبو الحسن الشاذلي
الصوفي المجاهد والعارف بالله" — زادت بنسبة زيادة أنوار الشيخ وزيادة أتباعه!
وفي تونس هذه المرة يلتقي بتلميذه الوفي أبي العباس المرسى، ويقول في حقه قولته
المشهورة عندما رآه: «ما ردتني إلى تونس إلا هذا الشاب»³⁰.

وهذا يعني أنه كان زاهدا في العودة إلى تونس لو لا ما كان يشغله من أمر هذا
الشاب الذي سوف يصبح خليفة له يرث عنه القطبانية، وذلك بعدما رأى فيه القدرة
على تسلم المشعل ومواصلة السير في الطريق إلى الله من بعده.
وفي سنة 642 هـ يرى الرسول ﷺ، في المنام يقول له: «يا علي انتقل إلى الديار
المصرية فإنك تربي فيها أربعين صديقا»³¹.

فرحل أبو الحسن إلى مصر ومعه العديد من تلامذته ومريديه فدخل الاسكندرية
واقام ببرج من أبراج السور، وحبسه السلطان عليه وعلى ذريته تبركا. وكان دائم التنقل
بين المدن المصرية الكبرى يعظ ويوجه وينشر طريقته³².
وقد عاش أبو الحسن خلال هذه الفترة في مصر في راحة نفس وهدوء بال، منقطعا
لعبادته ودعوته.

وفي خطاب له لأحد أصدقائه ما يؤكد لنا هذا حيث يصف له مقامه بالإسكندرية
فيقول: «الكتاب إليكم من الثغر حرسه الله، ونحن في سوابغ نعم الله تتقلب .. وأما

²⁹ شرح حزب البر، ص: 33.

³⁰ درة الأسرار، ص: 39. والمفاخر العلية، ص: 28.

³¹ درة الأسرار، ص: 39. 40. وشرح حزب البر، ص: 33. والمفاخر العلية، ص: 28.

³² شرح حزب البر، ص: 33.

الأهل والأولاد والأصهار والأحباب، ففي سوابغ نغم الله يتقلبون، وبإحسانه ظاهرا وباطنا مغمورون»³³.

لقد كانت فترة إقامة أبي الحسن في مصر مصداقا لما نودي به حين دخلها: يا علي، ذهبت أيام المحن، وأقبلت أيام المنن، عشر بعشر، اقتداء بجدك عليه السلام³⁴.

لقد وجد أبو الحسن في مصر: حكاما، وعلماء، وشعبا السند القوي لدعوته، فقد كان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل مصر، ويرافقونه في تنقلاته وجولاته مثل العز بن عبد السلام، وتقي الدين بن دقيق العيد، وعبد العظيم المنذوي، وابن الصلاح، ونبيه الدين بن عوف، وغيرهم.. وابن الحاجب، وجمال الدين بن عصفور، وهؤلاء كانوا — على الأخص — يواظبون على حضور درسه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة ملازمين الأدب له، متلمذين عليه³⁵.

وقد ذكر ابن عطاء الله السكندري في كتابه "لطائف المنن" كثيرا من أخباره وكلامه ومناقبه وكراماته وثناء أكبر العلماء عليه وتحليته بأوسمة رائقة ووصفه بالقبطانية الكبرى³⁶.

وبعد أربع سنوات من إقامته بمصر والتي كانت حافلة وخصبة من حيث الدعوة، ومن حيث تكوين الرجال يمتحن الله الشاذلي بكف بصره فيستقبل ذلك صابرا محتسبا أجر ربه، ويعبر عن ذلك في صورة رائعة حين قال لتلميذه أبي العباس المرسى: «لقد انعكس بصري في بصيرتي فصرت كلي مبصرا»³⁷.

³³ المفاخر العلية، ص: 30. و درة الأسرار، ص: 42.

³⁴ المفاخر العلية، ص: 21. و درة الأسرار، ص: 42.

³⁵ المفاخر العلية، ص: 21.

³⁶ لطائف المنن، ص: 51. 52.

³⁷ المفاخر العلية، ص: 43.

ويعلل أبو الحسن الشاذلي سبب تعرضه لهذا الحادث فيقول: «لقيت بعض الأولياء في إحدى سياحاتي فعرضت عليه كلاماً في التوحيد فصاح الرجل ومات فقيل لي: يا علي لم فعلت ذلك؟ لتعاقبن بذهاب بصرك»³⁸.

وقد كان من عادة أبي الحسن أن يخرج إلى الحج في كل عام وعند خروجه سنة 656 هـ ووصوله عند "قنا" قال لخدمته: «استصحب فأساً، وقفة، وحنوطاً، وما يجهز به الميت»³⁹. وفي شوال من تلك السنة وصلوا إلى "حميثرة" وهي موضع في الصحراء المؤدية إلى عيذاب في واد على طريق الصعيد على البحر الأحمر، حيث أصابت أبو الحسن وعكة وانحرف ميزاجه فجمع أصحابه، وأوصاهم بأشياء وبخاصة "حزب البحر"، وقال لهم: «حفظوه لأولادكم، فإن فيه اسم الله الأعظم»⁴⁰.

وبات في تلك الليلة متوجهاً إلى الله تعالى، ولسانه لا يفتر عن ذكره، فلما كان الفجر طلب ماء للوضوء فتوضأ ودخل في الصلاة، وفي السجدة الأخيرة لى داعي ربه فسلم أبو العباس المرسي بغسله وكفنه والصلاة عليه ودفن حيث مات في "حميثرة"⁴¹.

ولئن انتهت حياة الشاذلي كجسد، فإن حياته كفكر وسلوك سوف تظل من القمم العوالي تستأثر باهتمام الباحثين والدارسين في تاريخ الفكر الصوفي المغربي، وذلك نظراً للدور الفاعل الذي قام به أبو الحسن الشاذلي في بلورة هذا الفكر وإثرائه وتجديده، هذا التجديد الذي أحدث ثورة جذرية في مجال التصوف، كانت لها آثار إيجابية على شيوع التصوف الشاذلي في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

³⁸ المفاخر العلية، ص: 43.

³⁹ المصدر نفسه، ص: 45.

⁴⁰ درة الأسرار، ص: 230. 231. والمفاخر العلية، ص: 45.

⁴¹ درة الأسرار، ص: 231. والمفاخر العلية، ص: 46. وشرح حزب البر، ص: 33.

إن ما حققه التصوف الشاذلي من انتشار واسع داخل المغرب وخارجه يعود في الأساس إلى تضمنه هذا التصوف من مبادئ رائدة يمكن إجمال أهم معالمها في الآتي:

1 — العودة بالتصوف إلى المنبع الذي يجب أن يصدر عنه، وهو الكتاب والسنة. يقول الشاذلي: «إذا عارض "كشفك" الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في الكشف»⁴²

2 — التصوف الشاذلي لم تتفرق به السبل، ولم تتنجس به الأذواق والأشواق، ولم يعترف بالرموز الفلسفية والكلمات الغامضة، والسطحات المترنمة التي قفزت إلى الأفق الصوفي. ومن هنا نجد الشاذلي يرفض التجريد والكرامات الحسية وخرق الأسباب والعوائد التي اشتهر بها المتصوفة من قبل وعملوا على تسجيلها وإذاعتها بين العامة.

3 — تصحيح المفهوم السطحي لمعنى التصوف، والزهد، والتقشف والأوراد. يقول الشاذلي: «ليس التصوف بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو الصبر على الأوامر واليقين في الهداية»⁴³. ويقول أيضا في رده على أحد السائلين الذي قال له: «يا سيدي، وظف علي وظائف أقوم بها، فيقول له الشاذلي مستغربا ومستكبرا: أرسول أنا؟ الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة، فكن للفرائض حافظا وللمعاصي رفضا تكون متصوفا صالحا»⁴⁴. فالشاذلي يوضح هنا، أن معالم التصوف ليست في الرسوم والأشكال السطحية، وإنما في النوايا والأعمال واتباع أحكام الشريعة.

4 — خلو التصوف في أذكاره وأحزابه وأوراده من البدع، وذلك بنجد أحزاب الشاذلي تتألف مطالعها من سلسلة آيات.

⁴² انظر أحمد بن عجيبة: إيقاظ الهمم، ج2، ص: 122، 123.

⁴³ عمار علي سالم: أبو الحسن الشاذلي، ص: 122.

⁴⁴ ابن عجيبة: شرح الصلاة المشيشية، ص: 6، 7. الوزاني: الزاوية، ص: 143.

5 — الانسجام بالتوسط والاعتدال: لقد سلك الشاذلي في التصوف طريقا معتدلا سواء في الناحية العقائدية أم الأخلاقية وحرص على ألا يخرج في كلا المجالين على مصدري قوة الأمة وهما: الكتاب والسنة، ولذا سميت طريقته بالمنهج الوسيط والصراط المستقيم.

6 — المحافظة على الوحدة بين أفراد الأمة: لقد وعى التصوف الشاذلي أهمية هذه الوحدة فعمل على تمتين عراها واستمرارها بمختلف الوسائل والطرق، ولذلك نجد الشاذلي يقول لأصحابه في اطمئنان: «اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فردوه»⁴⁵.

7 — نفى التعارض بين التصوف والحياة: التصوف الشاذلي لا يرى أي تعارض بين التصوف والحياة، بل هما صنوان، ولطالما أعطى الشاذلي المثل الحي من حياته الخاصة بحيث لم يمنعه كبر سنه وكف بصره في أواخر حياته من المساهمة في دفع الخطر الصليبي على مصر سنة 648 هـ، فرحل من الإسكندرية — محل إقامته — إلى المنصورة التي كانت قاعدة انطلاق الجيوش الإسلامية فحارب بذلك مثالا للصوفية الشاذليين بالمغرب الذين سيأتون من بعده ويقومون بأدوار بطولية في معركة "واد المخازن" في القرن العاشر الهجري، معركة بدر الثانية في غرب العالم الإسلامي.

وأبرز مثال يمكن الاستشهاد به هنا هو ما قام به "أحمد بن علي بن ريسون.ت: (1003هـ) — مؤسس الزاوية الريسونية الشاذلية بجبل العلم "تازروت" — من دور فاعل في استتفار واستقطاب قبائل "الهبط" للجهاد وذهابه على رأس مجاهدي هذه القبائل إلى معركة واد المخازن، التي ألحقت بالعدو الصليبي أفدح الخسائر في الأرواح والمعدات.

⁴⁵ درة الأسرار، ص: 85. سلوة الأنفاس، للكتاني ج1. ص: 30.

وتقديرًا لما أظهره أحمد بن علي بن ريسون من بطولة نادرة، وبسالة فائقة في إحراز النصر، قام السلطان أحمد المنصور الذهبي بإقطاعه أرض المعركة التي هي حبس الزاوية الريسونية منذ ذلك التاريخ.

8 — إباحة التنعم بأطياب الحياة المشروعة: لقد سلك الشاذلي مسلكًا فريدًا لم يسلكه من سبقه فدعا جهارا إلى التنعم بالملابس، والمراكب وغير ذلك حيث نجده، وهو الشيخ الصوفي المربي يلبس الفاخر من الثياب، ويركب الفاره من الدواب، ويتخذ الخيل والجياد، وكان لا يعجبه الزي الذي اصطلاح عليه الفقراء، ولا يتخذ المرقعات التي يتخذها الصوفية⁴⁶.

ومن الطريف ما يذكر هنا أن رجلا فقيرا دخل ذات يوم على أبي الحسن وعليه ملابس شعر دليل على زهده وتقشفه، فقال له ذلك الرجل: — بعد ن أمسك بملابس الشاذلي الجميلة — يا سيدي ما عبد الله بهذا اللباس الذي عليك، فأمسك الشاذلي بملابس الصوفي فوجدها خشنة فقال: «ولا عبد الله بهذا اللباس الذي عليكم، لباسي يقول للناس أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول إني فقير إليكم فأعطوني»⁴⁷.

ويعقب ابن عطاء الله السكندري على هذه القصة فيقول: «وهكذا طريق الشيخ أبي العباس، وشيخه أبي الحسن، رضي الله عنهما، وفي يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبي الحسن، وفي نفسه أن يأكل الخشن، وأن يلبس الخشن، فقلل الشيخ: «يا أبا العباس: اعرف الله وكن كيف شئت».

⁴⁶ عمار علي سالم: أبو الحسن الشاذلي، ص: 34. و الوزاني: الزاوية، ص: 141.

⁴⁷ لطائف المتن، ص: 129. و عمار علي سالم، أبو الحسن الشاذلي، ص: 122.

9 — رفض النزعة الموغلة في التأويل، وتطهير الفكر الصوفي من النزعات الإشراقية، وتقديم تصوف بديل هو التصوف السني، بدل التصوف الفلسفي الذي هو تصوف النجبة.

10 — الدعوة إلى العمل والكسب واتخاذ الأسباب ومحاربة التبطل: لقد كان الشاذلي يكره المريد المتعطل، ويكره أن يسأل تابعه الناس، وبحث على طرق أسباب الكسب والعمل، لأنه هو نفسه كان عاملا في الزراعة حصدا ودرسا وتربية للمواشي من ثيران وغنم وغيرها...⁴⁸.

وسيرا على هذا النهج نجد أبا العباس المرسى تلميذ الشاذلي يوضح لابن عطاء السكندري الذي استشاره في ترك أسباب العيش والالتحاق بالطريقة، فيقول له: « نحن إذا صحبنا تاجرا ما نقول له اترك تجارتك وتعالى أو صاحب صنعة ... أو طالب علم ... ولكن نقر كل واحد فيما أقامه الله تعالى ... »⁴⁹.

وهذه هي المبادئ الرائدة التي أصبح الشاذلي يدعو إليها وينشرها بين سائر الأوساط بعد أن رأى استعداد الجماهير المسلمة لتقبل ذلك والتي تمكن بواسطتها أن يحدث تغييرا جذريا في التصوف ويحقق نجاحا باهرا في استقطاب العديد من الاتباع من الخاصة والعامة ويتحمل مكانة خاصة في النفوس والقلوب والعقول ..

ولقد كان أبو الحسن الشاذلي من القمم الشوامخ في تاريخ التصوف الإسلامي الذين كانوا يلقون الناس وينقطعون لهم لا عنهم، وكان فيما يعلمه للناس أشد منهم التزاما وأعظم احتمالا للمشقة، فضرب لمريديه المثل بالفعل قبل القول، وبالقدرة قبل الموعظة.

⁴⁸ انظر عمار علي سالم: أبو الحسن الشاذلي، ص: 34. 124. و النهامي الوزاني: الزاوية، ص: 141.

⁴⁹ أبو الحسن الشاذلي، ص: 125.

لقد كانت حياة الشاذلي تمثل التصوف الحقيقي المنبثق من تعاليم الإسلام كتاباً
وسنة.

يقول الدكتور عبد الحلیم محمود: «والواقع أن حياة أبا الحسن حين يرسمها
للإنسان تظهر وكأنها معول يهدم ما يبينه أعداء التصوف من شبهات حوله»⁵⁰.

⁵⁰ أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله، ص: 64. 65.

وعلى هذا قامت الطريقة المشيشية، متجنبة الاعتماد على الأوراد والأذكار وما إلى ذلك مما يدفع إلى الرقص والشطح والزفن، فقد رفض المولى عبد السلام أن يصنع لمريديه أورادا بل اكتفى بالإرشاد والنصح.

تلك كانت أهم معالم طريقة المولى ابن مشيش في التربية الصوفية وسيكون الطواجين الغماري لها أبلغ الأثر في توجيه تلميذه أبي الحسن الشاذلي الذي صار من بعده أكبر متصوفة الإسلام على الإطلاق.

مشى أبو الحسن الشاذلي على درب شيخه ابن مشيش وواصل السير وأدرك وهو في بداية الطريق أن الشيخ موجه ناصح ومرشد أمين إلى طريق رب العالمين وليس هو الموحى وليس هو الملهم هو مصدر الأسرار والمرآة المجلودة التي تعكس ما يعتمل في كيان الصوفي.

إن كل ما يمكن أن يتركه الشيخ في المريد هو ذلك العطاء الذي يمكن أن نصفه بالبركة، والبركة كما سلف القول سر صلة الشيخ بمريده حين تلتقي يده بيده معاهدا إياه بالاستقامة وتستمر مهمة الشيخ في الريادة إلى أن يرتبط السالك بالسماء إلى أن يشرق عليه الملاء الأعلى إلى أن يتمكن من المجال الروحي.

تلك تجربة الشاذلي مع شيخه ابن مشيش وتلك معالمها ورسومها.

الساحلية امتداد للشاذلية

وفي عدوة الأندلس عرفت كل من مالقة وغرناطة إقبالا منقطع النظير على خلق المتصوفة الأمر الذي شجع على انتشار الطوائف والطرق الصوفية في وسط العامة والخاصة حتى صارت الطريقة كما يقول الشاطبي: كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به محمد ﷺ.

وشغلت الظاهرة الطرقية الرأي العام، واتخذ الموضوع أبعادا كان لها صدى في الأندلس والمغرب، خاصة بعد المناظرة التي جرت بين متصوفة الأندلس في غرناطة، أدت

ضراوتها إلى أن تضارب القوم بالنعال وتشابكوا بالأيدي، مما دفع العديد من الناس إلى الكتابة إلى فاس قصد الفتوى، وكانت فاس محط أنظار طلاب الدنيا والدين، ضمت القمم العوالي من الفقهاء وأعلام المحدثين، وفيها من الصوفية من يرسم الطريق عن خبرة، ويسلك بالمريد السبيل دون الخطأ.

وكان أبو إسحاق الشاطبي على رأس من استفتى علماء فاس بتقييد أرسله من غرناطة إلى ابن عباد الرندي أبي العباس القباب وأبي محمد الفشتالي واشتراك بالرأي في هذه المناظرة ابن خلدون.

وقد ركز الشاطبي في فتواه حول مسألة شغلت الجمهور في الأندلس عامتهم وخاصتهم، نتيجة نقشي التصوف الشعبي في كل من غرناطة ومالقة، كما تضمنت الفتوى قضية اتخاذ الشيخ في سلوك الطريق: هل يلزم أو لا، أو هل يصح بالعصامية المعولة على المجاهدة الذاتية والتحصيل من الكتاب الصوفي؟.

وقد أفق العلماء برأي، وتمخض الأمر بالنسبة لابن خلدون عن كتابه القيم "شفاء السائل"، وقد أجمعت إلا على وجوب اتخاذ الشيخ بجانب المريد خصوصا في مرحلة مجاهدة الاستقامة، ومجاهدة الكشف والاطلاع، ولو كانت بضاعة الشيخ قليلة، كما يقول ابن عباد الرندي.

ومن يقرأ "شفاء السائل" يجد ابن خلدون حريصا كل الحرص على تسنين التصوف، وترويض المريدين في عصر سادت فيه ثقافة الفقه، فالترقية الصوفية ينبغي أن تنبني على ما يقضي به الكتاب والسنة.

لقد أراد ابن خلدون أن يفقه التصوف، لكن وجد الأمر قد أفلت من يده، وأتت حركته متأخرة عن أوانها؛ فقدما صاح أبو طالب مكّي في إحدى ثوراته قائلا: «علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله»

ولم يقف ابن خلدون عند حد تسنين التصوف وإخضاعه لمراقبة الفقهاء طبقاً للكتاب والسنة، وإنما طالب بعنف بإتلاف كثير من كتب التصوف ودعا إلى إحراقها وغسلها بالماء.

ولم يكن ابن خلدون ممن قاد هذه الحملة، فقد شاركه فيها العديد من الفقهاء، ويكفي أن نشير إلى الحملات التي أعلنها محمد الحلفاوي على الصوفية الضالّة في الغرب الإسلامي، وقد كان وراء الحلفاوي هذا السلطان أبو عنان المريني، الذي أعانته ووقف بجانبه.

وقد أدت هذه الحركة إلى بروز الشاذلية كزاوية حضرية متشعبة بالمالكية في كل من المغرب والأندلس، وكذلك الزاوية الساحلية في مالقة التي قامت بدور شبيه بالدور الذي قامت به الطريقة الشاذلية وإن كانت الطريقة الشاذلية أكثر انتشاراً وشعبية في كل من المشرق والأندلس.

وقد عرفت الطريقة الشاذلية طريقها إلى الأندلس قبل أن تعرفها إلى المغرب أصل انطلاقها. ويستفاد هذا من فقرة وردت في روضة التعريف في معرض حديثه عن الطرق الخاصة التي يتبعها التيار الصوفي في التكوين في بلاد الأندلس. قال الطرق المملوكية إلى تجريد النفس من عالم الحس وتصفيته متعددة.

وبعد أن هاجم ابن الخطيب الطرق المضلة في الأندلس كالشاذلية والسبعينية والبونية ومدرسة ابن العريف وطرق أخرى كثيرة انتقدت بشدة مناهجها في التربية والتكوين، ولم يجد من بين المناهج المتبعة إلا منهج الطريقة الشاذلية فقد أختار هذه الطريقة، أولاً لأنها أشهر طريقة في عصره في الأندلس بلده وفي البلاد المشرقية، وثانياً لأن تعاليمها وفلسفتها لا تخرج عن عقيدة الأشعري، وثالثاً أن السالك لطريقة الشاذلية عليه أن يعرف أن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله وشرعه لا بالعقل.

ويبدو أن ابن الخطيب كان عالما للطرق الصوفية المنتشرة في كل من المغرب والأندلس، وحتى في المشرق كان مدركا لتعاليمها وتقاليدها وإشاراتها ورموزها واعتقاداتها، حتى أنه ليخيل إليك أن ابن الخطيب لم يكن يعرف من العلوم إلا التصوف، وبالذات التصوف على الطريقة الشاذلية.

ومحاذاة الشاذلية كان ببلاد الأندلس طريقة صوفية اشتهرت اشتهارا كبيرا وصار اتباع هذه الطريقة لا تخلو منها قرية ولا بلدة تلك هي الطريقة الساحلية التي كان لها ببلاد المغرب وفي أكثر من بلاد المشرق أتباع ومريدون.

وبيت الساحلي التي تنسب إليه الطريقة الساحلية بيت عريق في الأندلس. ترجم ابن الخطيب في الإحاطة لثلاثة من أعلام هذا البيت، أولهم: إبراهيم الساحلي الذي رحل إلى مالي، وثانيهما: محمد بن أحمد الساحلي، وثالثهما محمد بن محمد الساحلي. وقد ذكر ابن الخطيب لكل واحد من هؤلاء الساحليين لقبا يتميز به. فإبراهيم يلقب بالطويجن، ومحمد بن أحمد يعرف بالعابد، والشيخ الثالث يلقب بالمعمم. والذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو محمد بن أحمد الأنصاري الساحلي شيخ الطريقة الساحلية، وابنه محمد بن محمد وارث سر أبيه وشيخ الطريقة بعد وفاة والده، وهو صاحب كتاب بغية السالك.

وفي كتاب بغية السالك، ترجمة وافية لمؤسس الطريقة الساحلية وإشارات مفيدة عن والده وأسرته التي استوطنت غرناطة أول الأمر، ثم رحلت إلى لوشة فمالقة، حيث أسس أبو عبد الله الأنصاري الطريقة الساحلية. وللساحلي آثار كثيرة وتوايف عدة من ذوات النظم والشر أكثرها ترغيبات في أعمال البر والخير، وخطب ودعوات ووصايا ومواعظ وحكم، وكيفيات في الصلاة على النبي ﷺ، وأمداح فيه وغير ذلك.

وصدرت عنه رسائل لبعض أصحابه تتضمن وصايا وآدابا وحكما انتشرت في الآفاق وأكثرها في غرناطة.

ويذكر مؤلف البغية أن أحد الأصحاب في غرناطة عاكف على جمع رسائل والده وتأليفها كما يذكر أيضا أنه ألف في حق والده كتابا خاصا بأحواله وكراماته سماه "بالنفة القدسية في الأخبار الساحلية".

أخذ الساحلي طريق القوم عن شيخه أبي القاسم المريد، فهو الذي دله على الطريق ورتب له أحواله وأعماله وحبب إليه الخلوة والنظر في الزهد ومحاسبة النفس ومال به إلى الإكثار من الذكر والصمت حتى فاضت عليه أسرار الطريق دفعة واحدة، ولاحت في باطن أنوار الحقائق، وشهد له الشيخ بعد قطع الفلوات واجتياز الخلوات أنه على بينة من ربه فأجاره وقدمه على أصحابه.

سلك الساحلي أول الأمر طريق الكتمان وهذا ملمح من ملامح الصوفية في المغرب والأندلس. فالمتبع لأخبارهم يجدهم راغبين في التكنم بعيدين عن حب الظهور، لا يريدون لأنفسهم الأهمية التي تدفعهم إلى جمع الناس من حولهم وما فكروا في الظهور وجمع الناس على الذكر والتلاوة حتى رأوا أن مصلحة الإسلام في ذلك لضرورة تشغل الجمهور وتحمسه وعدم تركه عرضة لدعوات النصاري والمتبعين المبتدعين كتلك الفتنة التي أحدثها الفزازي في مالقة حينما ادعى النبوة.

ونظرا لما قد تحدثه مثل هذه الدعوات من بلبلة في أوساط العامة والخاصة رأى الساحلي أنه حان الأوان للجهر بطريقته والدعوة لها فأشهر من مبادئ طريقه في الناس ما لعله يخرجهم عن بعض ما هم عليه.

وحتى لا يندرس مذهب الساخلية وتعفى معالم طريقها لما بدا على القوم من فتور وكسل قام ولد شيخ الطريقة الساخلية بتأليف كتاب بغية السالك ليقطع الطريق على من يطمع في تشويش معالم الطريق ويتصدى للإمامة فيه الجاهلون وحتى لا يتسارع إليه أهل النظر ويلوموا عليه من السلف من أهله، فأجمع نفسه على تأليف هذا الكتاب يترجم فيه عن حقيقة طريق القوم جملة وتفصيلا، ويرتبه على المقامات الثلاث تأصيلا وتحصيلا،

وينيه على الأذكار الخمسة توجيها وتعليلًا، ويعضده بالنقل والعقل تصحيحًا وتزيرًا وأقصد فيه التوسط بين الاختصار والتطويل.

تعاليم الساحلية:

تحمل الطريق أعلام بالملازمة تارة وبالتأديب والملازمة تارة أخرى، حتى تؤدي إلى أصحابه محفوظًا من التغيير والتبديل جاريا على الحق على أوضح سبيل.

أول اسم يُجده على رأس القائمة شيخ الطريقة الساحلية هو محمد بن محمد أحمد الأنصاري الذي أخذ الطريقة عن والده وشيخه أبي عبد الله الأنصاري الساحلي، عن أبي القاسم المريد، عن أبي علي الحرار عن، أبي عمران البذعي، عن أبي عبد الله التاودي، عن أبي الحسن بن حرزهم، عن عمه أبي محمد بن حرزهم، عن ابن عربي، عن أبي حامد الغزالي.. إلى آخر السند المعروف. هؤلاء هم شيوخ الطريقة الساحلية، بعضهم مغربي وبعضهم أندلسي، بعضهم ألفت المصادر على شخصيتهم بعض الأضواء وآخرون منهم لم نثر إلا على أسمائهم، ومع ذلك فيمكن أن نخرج مما سبق بالملاحظات الآتية:

1 — إن سير الطريقة ورئاستها لم تخرج عن جماعة المغاربة والأندلسيين.

2 — إن الطريقة تكونت في مجال جغرافي خاص هو الأمة الأندلسية غريبة عن

الأمصار من وراء أمواج البحار دار بها العدو دور السوار على المعصم.

3 — أن الساحلية تلتقي مع الشاذلية عند ابن حرزهم أبي الحسن، فعنه أخذ

الشاذلي في بجاية وألبسه الخرقة. ولبس الخرقة طريقة من طرق الأخذ في مذهب الشاذلية، إذ للشاذلي طريقتان: طريقة مشيشية فيها صحبة واقتداء من غير خرقة، وطريقة أخرى فيها لبس الخرقة وتلقين الذكر. وفي المشرق يعتبرون أن من مظاهر الدخول في الطريقة هو لبس الخرقة، فهو عنوان الاندماج في الطريقة.

4 — إن السند في الطريقة الساجدية متعدد التعدد الذي نجده في بعض الطرق الصوفية الشاذلية ففي طريق ابن حرزهم أبي الحسن طريقان يتفرعان أيضا إلى طرق وأسانيد أخرى متعددة لا مجال لتتبعها لتداخلها وتقاطعها.

5 — انطلاقا مما سلف يمكن اعتبار الطريقة الساجدية امتدادا للطريقة الشاذلية التي كانت شهيرة بالأندلس كما يقول ابن الخطيب.

6 — الطريقة الساجدية طريقة تربوية؛ فقد أخذ الساجدي الطريقة بالتربية عن ابن حرزهم الذي كان مما أمر به أن يقيم الزاوية وأن يلازمه، ففعل مدة، ثم أمره بالالتقاء بالشيخ أبي مدين ف قضى عنده فترة ممتثلا لأوامره ونواهيته حتى وصل. والشيخ أبو مدين يعد أحد كبار شيوخ الطريقة الساجدية، وإلى ذلك أشار أبو عبد الله محمد الساجدي في بغية السالك.

مصادر الساجدية:

تركز الساجدية في تربية المريد وتكوينه على خلاص النفس من عللها وتطهيرها من أدراكها، ذلك أنه في اعتقاد الصوفية أن الله جعل بين النفس والجسم تعلقا عجيبا وارتباطا غريبا لولاه لم يستقر قرار النفس فيه للمضادة التي بينهما، وبذلك التعلق والارتباط تحلت النفس من كثافة الجسم بأوصاف وتحلى الجسم أيضا من لطافة النفس بأوصاف، لكن النفس أشد انفعالا لمقتضيات الجسم أيضا، وأكثر اتصافا بأوصافه لبعدها عن عالمها وقربه من عالمه، فكلما مال الجسم لمقتضى النفس جذبته عن ذلك كبح عالمه القريب فيضعف الميل، وكلما مالت النفس لمقتضى الجسم لم تجد وازعا عن ذلك من عالمها لبعدها عنه، فاتصفت بأوصاف الجسم وتلوثت بأدران مقتضياته حتى أخرج ذلك عن طبعها ونزع عنها أبواب طهارتها وأمراضها بعلى الآفات، حتى صار لها ذلك أعظم حجاب عن خالقها وأكبر قاطع عن عالمها.

لذلك كان العبد مطلوباً بخلص نفسه من عللها وطهارتها من أدراكها لتعود إلى ربها راضية مرضية، وهذا هو العهد الذي أخذه الله تعالى عن آدم.

السبيل إلى تطهير النفس في الطريقة الشاذلية:

ترى الساحلية أنه لما كانت العقول عاجزة عن إدراك أسباب خلاص النفس من عللها قيض الله لها من يقودها ببعث الأنبياء والرسل والأولياء هداة للعقول إلى ما فيه خلاص الأنفس من دنس وإخراجها من الظلمة إلى النور بطرق سهلة. فجاء الدين بوظائف منها ما يخص بالظاهر ومنها ما يختص بالباطن. أما ما يختص بالباطن فكالأدوية، وأما ما يختص بالظاهر فكالأغذية، فإذا دخلت بشاشة الإيمان على الباطن حركت الظاهر ليعمل بموجب ما حصل فيها من إيمان، فيعظم اليقين فلا يزال ذلك كذلك حتى ينتهي الإيمان إلى الغاية التي ليس بعدها مرمى.

ولهذا يدعى النفس وطهارتها لا بد من طبيب يداويها بالأدوية التي توافق الأغذية، ولا شك في أن طب الأنفس أوكد وأولى من طب الأبدان لأن العاقل إنما يعالج بدنه لكي يحصل له البقاء الذي يدرك فيه علاج نفسه. فطب الأبدان سبب لنيل الراحة الدائمة والحياة الباقية.

ولعل من الوسائل الناجعة في مداواة النفوس الاعتماد على القرآن والسنة، ففيهما الشفاء والدواء، وفيهما النور من أثر الاهتداء والحكمة لمن أراد الدواء.

ولقد ترك الله بعد نبيه محمد ﷺ الوارثين له المهتدين بهديه أئمة وقادة الهدى، ولم تزل هذه الورثة قائمة يرثها قوم عن قوم من عهد الصحابة إلى هلم جرا. وإلى ذلك أشار الرسول ﷺ: «لم تزل طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من ضل إلى قيام الساعة».

حفة الطبيب/ الشيخ المعالج في الطريقة الساحلية:

لا يأخذ بيد المريض في الطريقة الساحلية إلا من خصه الله بآثار حكمته وأطلعته على أسرار الشريعة ووقفه على معاني الكتاب والسنة، ولا يكون ذلك إلا ممن سلك مقامات الدين وقطع منازل السالكين وتخلص من نفسه على يد وارث آخر صار على بينة من أمره. ومضى قصر عن هذه الأوصاف فهو معلول يحتاج إلى طبيب.

الحكر حمامة المتقين في الطريقة الساحلية:

إلى جانب مسألة السلوك على يد الشيخ وأهمية ذلك في التربية والتكوين، هناك مسألة تعيرها المدرسة الساحلية كبير اهتمام وهو الذكر فهو قطب رحاها وعماد مبناها. فالساحلية ترى أن افضل ما يتقرب به إلى الله تعالى هو الذكر، وهو أجل الوسائل إلى معرفة الله، قال تعالى: «ولذكر الله أكبر» ، وقال: «فذكروني أذكركم» والذكر ينيل المغفرة والأجر. «والذاكرون الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما».

والذكر مطلوب الإكثار منه: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا». ولا شيء أبلغ في ذم الغافل عن الذكر من قوله تعالى: «ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقض له شيطانا فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون».

وكما احتج الساحليون في موضوع الذكر بالقرآن احتجوا لطريقتهم بالحديث والسنة، فعن أبي داود، عن أبي الدرداء قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق

وخير من أن تلقوا عدوكم فتضربوا بأعناقهم ويضربون بأعناقكم فقالوا ما ذاك يا رسول الله قال: ذكر الله».

ويستفاد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي اتكأ عليها الساحليون لتقوية مذهبهم: أن الذكر إذا استعمل على طريقه المعروف منبعه المؤلف، على قواعد الشرع، محفوظ من خطرات الزيغ فإنه لا يدع من علل النفس شاذة ولا فاذة. فتتجلى به النفس وتتخلى الخلق الذميم وهذا يعني أن الذكر ليس المراد به دورانه على اللسان فقط بل لابد أن يجري في القلوب ويسري في الروح.

وأذاكار السالكين في الطريقة الساحلية؛ وهي وإن كثرت، ترجع إلى خمسة: أذكرو الاستغفار، أذكرو التصلية، أذكرو التهليل، أذكرو تزيه وأذكرو أفراد، ودليلها من القرآن: استغفروا ربكم أنه كان غفارا .. واستغفر لذنب .. ومن السنة قوله ﷺ: من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب.

الاجتماع على الذكر وخروجه في الطريقة الساحلية:

لم يكن الاجتماع على الذكر معروفا في الطريقة الساحلية، لكنهم استعملوا بعضه خاصة أصحاب البدايات بسبب ما يحصل لهم من الإفراط في المجاهدة بالاشتداد في الأعمال والانقطاع في المكابدة بإيثار الخلوة والصمت في كل الأحوال حتى أضغط ذلك نفوسهم وأحراق أكبادهم. فرأوا ترويحهم من هذه الضغوط بشيء يرتاحون إليه لقول النبي ﷺ: روحوا النفوس ساعة ساعة.

وقد وجدنا مشايخ الساحلية يقننون جواز الاجتماع على الذكر بالنسبة للمبتدئين ويضعون لمن يستحق منهم الاجتماع شروطا وآدابا أهمها:

- أن يعود الاجتماع بالنفع على السالك.
- أن يكون في محل الاجتماع قدوة أو من يطيعه ويضبطه.

— أن يكون المربون والسالكون صنفا واحدا يجمعهم طريق واحد.

— أن لا يمتزج ما اجتمعوا عليه من ذكر بلغو ولا هذر ولا غير ذلك مما يحرك

الغفلة.

— استصحاب الطهارة.

أحاديث الاجتماع وأهم تراثيه:

— أن يكون الاجتماع ليلا مما في الليل من الهدوء والخلوة لأنه محل المناجاة

والعبادات ومظان الإجابة والقبول.

— أن لا ينام بين الحاضرين وأن يجاهد نفسه.

— تحية الموضع المجتمع فيه بركتين أو أكثر.

— توفير خدس يسقى لهم الماء ويوقظ المصبي ويصلح شأنها طول الليل ويحفظ

النعال.

— التزام الآداب مع الله ومع صحبه.